تلقي كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد في ألمانيا

موسى ربابعة

أستاذ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الكويت

الملخص

ما أن ظهر كتاب إدوارد سعيد « الاستشراق » حتى أثار جدلاً واسعاً في دوائر الاستشراق والأوساط الإعلامية الغربية؛ فقد تعرض لهجوم كاسح من بعض المستشرقين الذين اتهموه اتهامات شتى؛ وذلك لجرأة الطروحات التي تناولها الكتاب، مما استثار الكثيرين، خاصة عندما ربط الاستشراق بالاستعمار والهيمنة والسيطرة، ولذلك نفى سعيد البراءة الاستعمارية عن معظم الدوائر الاستشراقية. ولأن الكتاب يمتلك طرازاً جديداً في جرأته وأسلوب تناوله، فإن الغربيين لم ينظروا إليه إلا أنه خروج على السائد والمألوف، فقد كشف سعيد عن الصفحات المطوية من تاريخ الاستشراق المغلف بالنزعات غير البريئة.

وثمة خصوصية امتاز فيها الاستشراق الألماني عن غيره من دوائر الاستشراق الأخرى، وهي خصوصية تتمثل في أن الاستشراق الألماني لم يرتبط بأي نزعة من النزعات الاستعمارية، وهذا ما جعله ينماز عن غيره، ومع أن إدوارد سعيد قد برأ الاستشراق الألماني من هذه الخطيئة، فإن ذلك لم يمنع الأوساط الاستشراقية والإعلامية الألمانية من مناقشة طروحات إدوارد سعيد بشكل أساسي وجوهري.

وتهدف هذه المقاربة إلى تتبع أهم الدراسات والمقالات التي تناولتها أقلام الدارسين، وتحليل آرائهم بشكل يعكس التصورات التي استقبل بها كتاب سعيد؛ لما له من أهمية كبيرة، فالغاية الأساسية تنصب في الكشف عن التفاعل الحضاري والثقافي بين الحضارات من خلال المنظورات المتصادمة والمتعاكسة .

يعد كتاب « الاستشراق « لإدوارد سعيد من أهم الكتب التي تتضمن مقاربات مهمة في الدراسات ما بعد الاستعمارية، فما أن صدر الكتاب عام 1978 حتى أثار جدلاً واسعاً في الأوساط الأكاديمية والإعلامية والأدبية والنقدية والاجتماعية على حد سواء في أنحاء كثيرة من العالم، وتتأسس رؤيته الأساسية على مقولات كل من فوكو حول الخطاب؛ أي من خلال الكشف عن العلاقة بين المعرفة والسلطة، ومقولات جاميشي عن الهيمنة السياسية الثقافية، وفي ضوء هذه المعطيات راح إدوارد سعيد يفكك الخطاب؛ الاستشراقي الغربي في دراسته للشرق، وركز بوجه خاص على الاستشراق البريطاني والفرنسي من القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين .

لم يكن الاستشراق مؤسسة بريئة في من منظور إدوارد سعيد؛ لأنه تحول من البعد الأكاديمي إلى البعد الذي يتطلع إلى الهيمنة والسيطرة على الآخر، ولذا فإنه قدم صورة تعج بالسلبيات التي اتصف بها الاستشراق، وهي رؤية قاتمة لا ترى سوى الارتباط العميق والجوهري بين الاستشراق ونفي الآخر، وإذا كان سعيد قد لجأ إلى التعميم فإن ذلك لا يمكن أن يلغي جهوداً للمستشرقين ساهموا فيها في خدمة التراث العربي بوصفه جزءاً مهماً من التراث الإنساني .

انطلق سعيد من منظور يتأسس على أن الاستشراق كرس الاختلاف السلبي بين الشرق والغرب، وعمد إلى تحليل النزعات الداعية إلى تكريس هذا الاختلاف من أجل تعزيز ثقافة الهيمنة، ولأجل هذا فقد عزز سعيد الفكرة القائلة إن الهوية الأوروبية متفوقة بالمقارنة مع جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية» الاستشراق، ص 42.

ولأن إدوارد سعيد قد استثنى الاستشراق الألماني من النزعة الاستعمارية والرغبة في السيطرة على الشرق فإن الأوساط الأكاديمية الألمانية والإعلامية تناولت كتاب إدوارد سعيد، وسيحاول هذا البحث أن يقارب بعض هذه الآراء ليكشف عن كيفية استقبال إدوارد سعيد في ألمانيا .ترجم كتاب الاستشراق إلى اللغة الألمانية مرتين، ترجمه عام 1979 هانز جونتر هول، وترجمه شتيفان فايدنر عام 2009 مرة أخرى .

ثمة مقالة نشرت في جريدة العالم الإلكترونية في السادس والعشرين من شهر نوفمبر2003 بعنوان «ضد الغرب» تعرضت على نحو مركز لكتاب إدوارد سعيد

الاستشراق، فعلى الرغم من أن الهجوم العنيف الذي شنه سعيد على أوروبا وأمريكا فإن كتابه ظل مطلوباً في الغرب، فقد عد الكتاب واحداً من أهم الكتب التي ظهرت في القرن الماضي، إذ ترجم إلى لغات كثيرة، وقد تناول الإعلام الألماني الكتاب مثال ذلك المقالة التي نشرت في جريدة العالم ضد العرب ،احتوت عدة عناصر، منها :

أولاً- الشرقي ثقيل الظل : إن صورة إدوارد سعيد وهو يرمي الحجارة من لبنان باتجاه إسرائيل التي تحمل بين ثناياها رمزاً وحدثاً استراتيجياً انتشرت في أنحاء العالم، ولكن سعيد الذي يشن الهجوم تلو الهجوم والعدواني كان إنساناً شفافاً، فغالباً ما شكا من أنه ينعت بالشرقي ثقيل الظل، على الرغم من أنه كرم من الأوساط الأكاديمية الأمريكية الراقية، وكان يقدر على أنه أكاديمي بارع ينهل الناس من علمه وثقافته.

ثانياً – الغطرسة الغربية المزعومة : لقد اشتغل سعيد في كتابه على الاستشراق بوصفه علما، لكنه لم يبعد عن الانطباعات والأوصاف التي شكلها الساسة الأوروبيون والرحالة والكتاب، فهو لم يكد يقول شيئاً طيباً عن الغرب، فقد زعم سعيد أن الشرقي في نظر الأوروبيين لا يعدو كونه أقل قيمة، وضعيفاً، ومتخلفاً عن عصره، ،وغيرها من الصفات السلبية الأخرى، فغالبا ما يفضل العربي الظلم والقمع على الحرية، وإن الإنسان الغربي ينظر إلى الشرقي على أنه غريب أو على أنه الآخر، لذا أخذت أوروبا على عاتقها أن تسبغ على الشرق بركات حضارتها .وإن مثل هذا الموقف قد جعل سعيد يصف مثل هذا الصنيع بالإمبريالية . ولذا فإن مريديه في الغرب قد باركوا نقد سعيد للاستشراق .

ثالثاً – لماذا ليس الهند؟ لقد اهتم سعيد بالبلاد العربية ولم يهتم إلا قليلاً بالهند وشرق آسيا وآسيا الوسطى وتركيا وإيران، فقد كان بإمكانه أن يجد شواهد وأدلة تؤكد ما ذهب إليه أكثر مما يجد في البلدان العربية؛ إذ إن الهند رزحت تحت الاستعمار البريطاني نحو مائتي سنة، وخمسمائة سنة تحت الحكم الإسلامي .في حين أن البلاد العربية كانت واقعة تحت حكم العثمانيين، ولم تتعرض لتأثيرات الإمبريالية الغربية إلا لعشرات السنوات.

رابعاً – عشق بلاد النور : لقد لعب المستشرق الهولندي سنوك هوجرونجه المتخصص بالشريعة الإسلامية والتصوف الإسلامي دوراً هائلاً في ظلم القبائل الأنونيسية، حتى إن ثيودور نولدكه بارك هذا الدور، على الرغم من أنه كتب في نهاية حياته أنه لا يعتبر العرب ، وهو لا يعني العرب فقط وإنما يعني اليهود أيضاً، وهناك نفر من المستشرقين كان لهم الموقف نفسه، مثل : فلوبيرت، وجوزيف كونراد.لكن هذا ليس رأي كل الغربيين .

خامساً – احتفاء الغرب : ثمة نفر من الغربيين احتفوا بالشرق احتفاء كبيراً، مثل بنيامين دزرائيلي، فقد كان متحمساً جداً للشرق، وكذلك الشاعر الفرنسي ألفونسو لامارتين الذي هاجر من أوروبا باتجاه الشرق باحثاً عن الحرية؛ إذ إن بعض المستشرقين من أمثال لويس ماسيون، وجاك بيرك، اللذين يعتبرهما كثير من العرب مسلمين. حتى إن جولد زيهر اليهودي الهنجاري، أحد أهم المستشرقين في القرن التاسع عشر قال : لقد عشت خلال هذه الأسابيع في القاهرة؛ بحيث أشعر بأني من أتباع النبي محمد، صلى الله عليه وسلم .

سادساً – فرضيات سعيد التي لا يمكن الدفاع عنها : ليس من الصحيح أن العلماء الغربيين بسبب أصولهم التي ينحدرون منها لا يستطيعون أن يفهموا الإسلام وأن يقدروه حق قدره، فثمة بعض الباحثين الذين تحولوا إلى الإسلام مثل : هيرمان فامبيرغر، وإسحاق إدوارد شنتزر، الذي عرف بأمين باشا، وهذه الأمثلة تؤكد بطلان ما ذهب إليه إدوارد سعيد؛ لأنه يعرف الأدبين الفرنسي والإنجليزي، لكنه لا يعرف عن الاستشراق الناطق باللغة الألمانية إلا قليلاً؛ إذ إنه عد بشكل واضح كلا من الاستشراق الألماني والروسي على أنه غير مهم، ولكن يرجع السبب في هذا إلى أن سعيد مزاجي ويعشق الجدل . إذ إنه يصاب بالملل من المعالجات الموضوعية .

سابعاً – إدوارد سعيد كاتب يساري : عندما صدر الكتاب عام 1978، فقد دبت الحماسة في نفوس كثير من الشباب والعلماء الذين وجهوا اهتماماتهم للشرق، ورفضوا فكرة الإمبريالية الغربية .

ثامناً – الأتباع المزيفون : على الرغم من أن بعض الدارسين قد هاجموا سعيد من مثل روبرت إيروين ورفضوا الكثير من طروحاته فإن بعضهم قد مدحوه وأثنوا على عمله من أمثال الجيل الجديد من المستشرقين وعلماء الثقافة، والعرب، والإسلاميين المتعصبين .وخلاصة الرأي أن إدوارد سعيد يمثل صورة مأساوية، فعلى الرغم من نقده الذي وجهه إلى الغرب فإنه يعلم أنه ينتمي إلى هذا العالم.

ويمكن أن تكون مقالة بيرغيت شيبلر أكثر دلالة على التماس مع ثيمات إدوارد سعيد، التي جاءت بعنوان : بناء الذات ما بعد الاستعماري بوصفه علماً : ملاحظات مؤرخة للشرق الأوسط حول حياة إدوارد سعيد ومؤلفاته.تتأسس هذه المقالة على أن سعيد يكرس نفسه على أنه الآخر الذي شكله خطاب ما بعد الاستعمار، فالآخر معطى جوهري في خطاب مابعد الاستعمار، وهو معطى يعود إلى جاك لاكان، وهو ما أطلق عليه الباحث في ثقافة ما بعد الاستعمار جاياتري سبيفاك الآخر أيضاً، لذا فإن سعيد الذي وجد نفسه أمام مفاهيم متعددة لما بعد الاستعمار، كشف أن الاستعمار يرتبط بالهيمنة الثقافية .لقد جسد سعيد وكل التيارات الثقافية التي له علاقة بها الآخر الذي تحول إلى أيقونة .

ففي كتاب الاستشراق صور سعيد الشرق على أنه الآخر المغلوب على أمره، ولذا فإن المقارنة بين الصورة والصورة المضادة قد تجلت من خلال الاختلاف البين بين الإنسان العربي والغربي، ومع أن سعيد هاجم الاستشراق البريطاني والفرنسي فإنه أخرج الاستشراق الألماني من دائرة الاتهام، على الرغم من أنه كان مطلعاً على الثقافة الألمانية وخاصة الموسيقى والفلسفة .

لقد هاجم سعيد برناردلويس، الذي اتهمه بتقديم الحجج الباطلة، وتجادل الاثنان حول مسائل كثيرة، فبرناردلويس ظل العدو اللدود بالنسبة لإدوارد سعيد، حتى إن سعيد لم ينج من نقد إلبرت حوراني الذي قال: إن الاستشراق ليس شراً كله. وإذا كان سعيد قد أثار جدلاً واسعاً في الأوساط الإعلامية والثقافية في أماكن كثيرة من العالم، فقد نظر إليه في ألمانيا بعين الريبة، أو الشك .وهذا ما صنعه بعض الباحثين .فقد كتب عدد منهم مقالات في الصحف الألمانية مثل: مارتين إيبل : الحياة بين الكراسي، ولودفيغ أمان : العائلة بوصفها منفى، وكتب دانيال باكس: بريطاني من القاهرة . وكتب توبياس دورينغ: الإزعاج

العاري يسكن فوق الحضارة .مثل إدوارد سع مثل نعوم جومسكي الضمير الأخلاقي للأمة . إن أعمال سعيد وسيرته الحياتية قد جعلت منه نموذجاً للدراسات الما بعد الاستعمارية، بحيث حاول أن يحقق ذاته من خلال مشروعه العلمي؛ إذ إنه سعى إلى محاولة بناء الذات وتحقيقها،وهذا أمر لا يتحقق عند المشتغلين بدراسات ما بعد الاستعمارفقط .ومن اللافت للنظر أن مخرجي الكتاب الذي جاء عنوانه حياة العلماء تطبيقات العلم في العصر الجديد، قد جعلا صورة الغلاف لوحة فنية لعالم أعمى، وهذا يؤشر على عمى بصيرة إدوارد سعيد، وغيره من علماء العصر الجديد.

لم تثر الزوبعة حول فكر إدوارد سعيد في الغرب فقط وإنما طلب بعض الباحثين العرب من سعيد أن يخفف من هجومه على الاستشراق بالصورة التي كشف عنها، فقد قيل إنه تبنى طروحات المفكر الماركسي أنور عبدالملك الذي وصف الاستشراق بأنه أداة إمبريالية تكرس التخلف والتبعية الثقافية للغرب، وقد كتب مهدي عامل كتاباً بعنوان : هل القلب للشرق والعقل للغرب – ماركس في استشراق إدوارد سعيد. وقد تكون بعض مقولات إدوارد سعيد التي دان فيها الاستشراق مقولات تحتاج إلى مراجعة جذرية . فاستناداً إلى أن نظرية المعرفة تعادل السلطة فإن الكثيرين تصدوا لهذا الأمر، وقرنوا الاستشراق بالنزعة الإنسية التي سادت في عصر النهضة الأوروبية .وقد انبرى هاشم صالح للرد على طروحات إدوارد سعيد فيما يخص العلاقة بين المعرفة والسلطة التي طبقها إدوارد سعيد في كتابه بشكل جوهري .ويظهر من هذا أن إدوارد سعيد وهو يعالج موضوع الاستشراق لم يستطع أن يتخلص من إحساسه كفلسطيني؛ إذ إن شبح الصراع العربي الإسرائيلي كان ماثلاً أمامه على الدوام .

ويبدو أن أستاذ الأدب المقارن الذي تحول إلى مثقف كوني استطاع أن يحقق ذاته عبر المقولات التي تستند إلى مرجعيات ثقافية، استطاعت أن تجعل منه المثقف النموذج الذي استطاع أن يخاطب وجدانيات العالم وأحاسيسه من كونه إنساناً ينتمي إلى لامكان .

إن أفكار إدوارد سعيد حول الاستشراق لم تتغير حتى بعد أن كتب خاتمة لكتابه الذي أعيد طبعه عام 1995، فالفكرة التي لم تبارح تفكير إدوارد سعيد أنه الآخر الذي يشعر بأنه المغلوب على أمره، وإن إنتاجه ومصنفاته المختلفة ظلت تدور حول محور أساس وهو محور إثبات الذات .

لم يستطع سعيد أن يخلص نفسه وأن ينقيها من شبح الهيمنة باشكالها المختلفة، تلك الهيمنة الطامحة إلى تهميش الآخر .وفقق هذا التصور فإن الإشارة إلى النقد الذي تعرض له سعيد، يحتاج في بعض الأحيان إلى مراجعة مهمة. ومن هنا فإن التلقي الذي حظي به كتاب إدوارد سعيد في العالم كان مهماً جداً، وهذا راجع إلى خصوصية طروحات مفكر مثقف تجاوز المحلية إلى الكونية.

وفي ضوء تصورات إدوارد سعيد التي تضمنها كتاب الاستشراق فقد عانت علوم الاستشراق الكلاسيكية من صدمة مهولة، فقد نفدت الترجمة الأولى للكتاب من السواق بسرعة فائقة، وإن هذا الكتاب الذي حقق شهرة واسعة وسم بأنه تعدى الحدود، ويتسم بالارتباك والتسرع بالاستنتاجات؛ بحيث فسح إدوارد سعيد المجال لانتقاده .وقد وسم سعيد بأنه شوفيني وعدواني. وقد ظهرت مثل هذه النزعات لتقزيم جهد سعيد، إلا أنه يبقى مثقفاً جدلياً، مثيراً وصادماً في آرائه ومنطلقاته.

مجلة العلوم الاجتماعية

فصلية – أكاديمية – محكّمة

تصدر عن مجلس النشر العلمي – جامعة الكويت

تعنى بنشر الأبحاث والدراسات في تخصصات السياسة والاقتصاد والاجتماع والخدمة الاجتماعية وعلم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية والجغرافيا وعلوم المكتبات والمعلومات

رئيس التحرير: هادي مختار أشكناني

تفتح أبوابها أمام

- أوسع مشاركة للباحثين العرب في مجال العلوم الاجتماعية لنشر البحوث الأصيلة والاسهام في معالجة قضايا مجتمعاتهم
- التفاعل الحي مع القارئ المثقف والمهتم بالقضايا المطروحة.
- المقابلات والمناقشات الجادة ومراجعات الكتب والتقارير.
- تؤكد المجلة إلتزامها بالوفاء والانتظام بوصولها في مواعيدها المحددة إلى جميع قرائها ومشتركيها.

توجه جميع المراسلات إلى:

رئيس تحرير مجلة العلوم الاجتماعية

جامعة الكويت

ص.ب 27780 الصفاة، 13055- الكويت

تليفون: 00965-4810436

فاكس 4836026

E-mail:JSS@kuc01.kuniv.edu.kw

الاشتراكات

	الكويت والدول العربية	الدول الأجنبية
أفراد	3 دنانير سنوياً ويضاف إليها دينار واحد في الدول العربية	15 دولاراً
مؤسسات	15 ديناراً في السنة 25 ديناراً لمدة سنتين	60 دولاراً في السنة 110 دولارات لسنتين

تدفع اشتراكات الأفراد مقدماً نقدا أو بشيك باسم المجلة مسحوباً على أحد المصارف الكويتية ويرسل على عنوان المجلة، أو بتحويل مصرفي لحساب مجلة العلوم الاجتماعية رقم 07101685 لدى بنك الخليج في الكويت (فرع العديلية).

Visit our web site: http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/jss